الخط العربي.. سمفونية الفن الجميل

هل يمكن اتهام الكمبيوتر بأنه سيقضى على فن الخط العربي ويجمده ويوقفه عند حدود معينة باعتبار أن الكمبيوتر يحتفظ بأشكال متنوعة من الخطوط يمكن استخدامها في أي وقت بسهولة ويسر دون اللجوء إلى الخطاط؟ أم أن الكمبيوتر يكون عاملاً مساعداً في تطوير الخط العربي والارتقاء به إلى آفاق أعلى، وتحريره من جمود القوالب والأشكال التقليدية؟ ربما حدث هذا أو ذاك، لكن المؤكد أن فن الخط العربي لن يموت، لأنه فن متميز ينطلق من حالات نفسية وشعورية، عبر عنها الفنان العربي بدقة وإتقان.. ولذلك كتبت الحياة لهذا الفن، ونما وازدهر في ظل الدولة الإسلامية.

والخط العربي ليس مجرد كلمات، وعبارات، وأشكال صماء جوفاء.. تكتب كيفما اتفق، أو تعتمد على الجهد الذاتي للخطاط أو الاجتهاد الشخصي لكل صاحب خط جميل، بل الأمر أكبر من ذلك بكثير.. ومن هنا، رسخت أقدام هذا الفن بين الفنون التشكيلية الحديثة.. أو بالأحرى فإن هذه الفنون من رسم ونحت وغيرهما هي التي تسلقت كاهل الزخارف الخطية العربية الأصلية، وانبثقت منها، أو بسببها.. وأصبح الخطاط المبدع فناناً حقيقياً، لا يقل عن غيره من الفنانين التشكيليين، الذين نتحدث عنهم بانبهار، ونقتني لوحاتهم باعتزاز.. لكن تلك الزخارف كان لها شأن كبير، وأهمية خاصة في ظل الدين الاسلامي بسبب القرآن الكريم.. اذ أبدع الخطاطون في كتابة آياته على شكل زخارف فنية لتوضع داخل المساجد، وقصور الخلفاء والأمراء، ودواوين الدولة.. وكان ذلك هو البديل الطبيعي لتلك الصور التي توجد في الكنائس، والمعابد.

ويروي أن سليمان بن وهب قد كتب كتاباً "(رسالة) إلى ملك الروم، في عهد الخليفة المعتمد العباسي.. فقال ملك الروم: " ما رأيت شيئاً أحسن من هذا الشكل.. وما أحسدهم على شيء حسدي لهم على جمال حروفهم".. وملك الروم هذا لم يكن يقرأ العربية، وإنما راقه خطها باعتداله وهندسته.

شهادات المستشرقين

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ المستشرق الانجليزي (أرنولد توبني):" لقد أنطلق الخط العربي، الذي كتب به القرآن غازياً ومعلماً مع الجيوش الفاتحة إلى الممالك المجاورة البعيدة.. وأينما حل أباد خطوط الأمم المغلوبة.. إن هذا العالم الإسلامي الذي امتد من بلادنا ما وراء النهرين في تركستان شرقاً.. إلى المغرب الأقصى بشمالي إفريقيا غرباً، قد أنجب عدداً لا يحصى من أهل هذا الفن الخالدين الذين تركوا على صفحات العصور ما حافظ على الطابع الإسلامي في هذه الرقعة الفسيحة من المعمورة".

إن الحرف العربي- بشهادة المؤرخين والمستشرقين- هو أجمل حروف لغات الدنيا! ثم هو – إلى جانب ذلك – حرف اختزالي وفي الاختزال وفر في الوقت والمساحة معاً.. هذا؟ علاوة على ما لدى الحرف العربي من قابلية المد، والمط، والاستمداد والاستدارة والرجع..بيما يكتب الحرف اللاتيني بتمامه.. فالكتابة العربية فيها حركات مثل الفتحة والضمة والكسرة والحركة – قطعاً- أجزل من الحرف.. فلو أردنا- مثلاً- أن نكتب كلمة (قلم) بالحرف اللاتيني، فلا مفر عن استعمال ثمانية أو سبعة أحرف لاتينية، بدلاً من ثلاثة أحرف عربية..!

ونذكر- في هذا الصدد- أن المستشرق "ريتر" أستاذ اللغات الشرقية في جامعة استانبول وهو من الأساتذة المخضرمين الذين حاضروا في العهدين العثماني، والكمالي قال: "إن الطلبة قبل الانقلاب الأخير في تركيا، كانوا يكتبون ما أتلو عليهم بسرعة فائقة، لأن الحرف العربي اختزالي بطبيعته.. أما اليوم. فإن الطلاب يكتبون بالحرف اللاتيني ولذلك فهم لا يفتأون يطلبون إلى أن أعيد عليهم العبارات مراراً.. إنهم معذورون- ولا شك- فيما يطلبون لأن الكتابة اللاتينية لا اختزال فيها، فلا بد من كتابة الحروف بتمامها.. أما الكتابة العربية، فهي أسهل كتابات العالم، وأوضحها.. فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل، وتوضيح الواضح".

سيمفونية خطية

إن العرب بشهادة المستشرقين وكبار الفنانين، كانوا سادة التزيين الخطي دون منازع.. يقول " جان جاك لوفيك" في كتابه" التصوير الزيتي الإسلامي والهندي": "لقد كان الفنان العربي يملك – أكثر من فناني الاسم القديم- فن كتابة السيمفونية بالخطوط"، لذلك.. كان من الطبيعي أن تتنوع إشكال الخط الكوفي لتزدان بها المصاحف، والأفاريز التي زانت جدران المساجد.. فكان الخط الكوفي المربع الهندسي الشكل، والخط الكوفي المورق ذو الزخارف النباتية، والكوفي المجدول، والكوفي المترابط المعقد..الخ، وما يقال عن الخط الكوفي يمكن أن يقال عن خطوط الثلث والفارسي، والديواني، والطغراء.. وذلك في تنوع أشكالها المستخدمة في الكتابة التزيين في نفس الوقت.

إن الخطاط العبقري يرى في الحرف ما لا يراه الخطاط العادي إذ أنه يزاوج بين الحروف وأعضاء الجسم البشري.. فالألف في لوحاته هي قوام حسناء.. وقوس حرف العين هو تخطيط حاجب.. والنون هي ثدي ناهد.. فيضفي بذلك الروح والحركة على الحرف.. وهذا هو سر الإعجاز.

وفي هذا الصدد فإن الخط يعطي إحساساً للفنان- بعد تجويده- يبعث على الارتياح النفسي.. وبالتالي يؤثر في سلوك الخطاط بما يجعله قدوة حسنة، ومثلاً طيباً للآخرين.. كما أن القارئ، أو المتأمل للعمل الفني الخطى إنما يتلمس بدوره ذلك السلوك الحسن، وستخلص العبرة أيضاً.

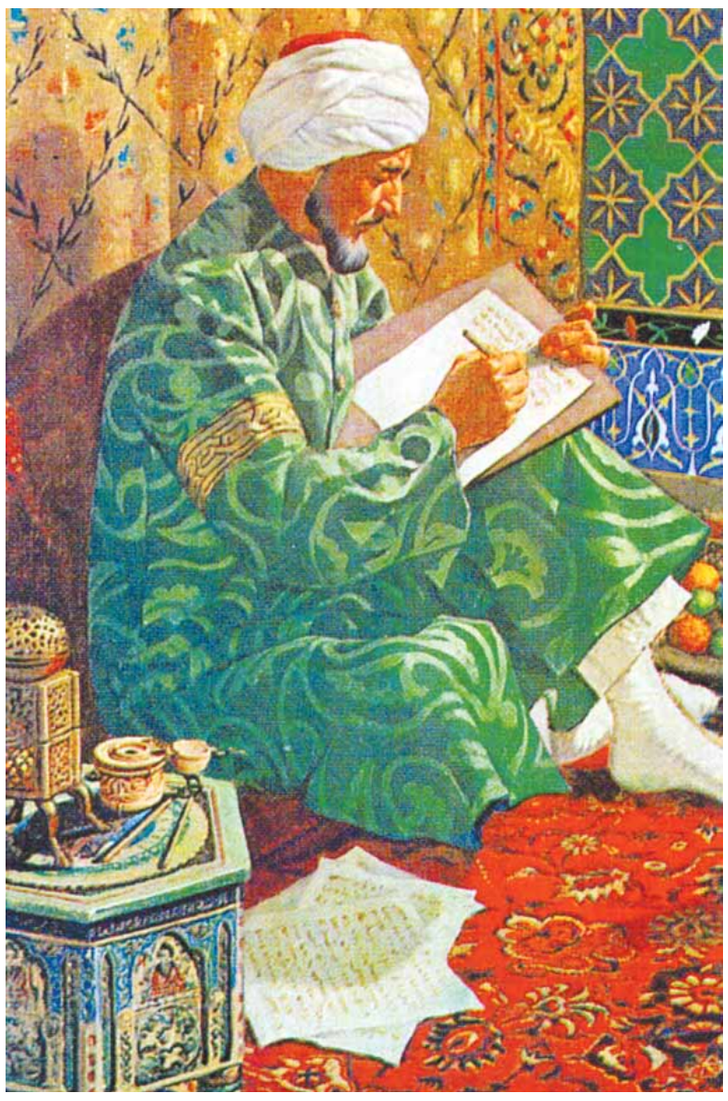

كما يذكر الخطاط " عماد حنفي" أن " لكل إنسان هواية" يفرغ فيها طاقاته الكامنة.. فإما أن يصرف الإنسان نشاطاته فيما يخدمه، ويخدم مجتمعه.. أو أن يبدد هذه الطاقات فيما لا يفيد، بل بما يعود بالضرر عليه وعلى مجتمعه.. فمن الطاقات المفيدة للفرد وللمجتمع أن يتجه الإنسان إلى فن راق جميل كالفنون التشكيلية، وعلى رأسها في الخط العربي.. ذلك الفن الروحاني الذي يسمو بالفرد، وأخلاقه، وبسلوكه، وتصرفاته إلى مستوى عالي، لاتصاله بنماذج أغلبها يدور حول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وأبيات الشعر والحكمة.. ففائدة الخط فائدة مزدوجة.. فهي فنية من ناحية، وهي- من ناحية أخرى- تقويمية تربوية".

فن الحروف

إن علامات الكتابة العربية " أشكال الحروف" لا تحاول أن تعني شيئاً فحسب، وإنما تريد هي الأخرى أن تكون شيئاً.. فهذا هو هدفها، وغايتها، ومعناها الدفين.. فهذه العلامات لا تؤدي مجرد وظيفة المقابل الصوتي في اللغة فقط، وإنما هي أعمال فنية في حد ذاتها.

والخط يحمل مضموناً ملزماً لا يجوز الحياد عنه، وهذا الفن يستطيع أن يعبر عن أرفع وأعمق ما يهز قلب الإنسان من فرح، أو حزن، أو ضعف.. أو ما يجوب الطبيعة بين الأرض والسماء من أعلى الأصوات حتى أخفتها.. إنه سحر الحياة المباشر، ذلك السحر الذي يسعدنا به الخطاط بأنه محاولة بلوغ الموضوعية عن طريق الذاتية، كما أن خطوط الكتابة، من حيث هي (أشكال مجازية) مرجعها المضمون بلوغ الموضوعية الذي تنطوي عليه هذه الخطوط..فالخط انطباعي قبل أن يكون تعبيرياً، وتأليف موسيقي قبل أن يكون وصفياً.

وقد استطاع الكاتب المجرد المزخرف أن يبتكر صوراً شتى للخط العربي وزخرفته.. واستطاع أن يستخرج منها أنماطاً زخرفية حسنة الإبداع من ذهنه الخلاق، وقد ظهر ذلك جلياً في الخط الكوفي اليابس، وفي غيره من الخطوط اللينة الأخرى.. وقد غالى الخطاط الفنان العربي، وأسرف في الزخرفة إلى حد التعقيد أحياناً.

وعلى الرغم من ذلك، فالحروف العربية لها حيوية شديدة ناشئة عن مطاوعتها، واستدارتها، وانبنائها جميعا على أصل هندسي ثابت، وقاعدة رياضية معروفة.. فأصل الحروف العربية (الألف) التي هي خط مستقيم، جعلوه قطر الدائرة أما بقية الحروف فهي أجزاء من الدوائرة المحيطة بهذا القطر، ومنسوبة إليه.. والحروف كلها، بأجزائها وكلياتها، مردودة إلى نسبة ثابتة، عرفت بالنسبة الفاضلة، التي ابتدعها الوزير.. " ابن مقلة ".. وقد نهج على نهجه في هذا المجال كل من جاء بعده من مشاهير الخطاطين من أمثال " ابن البواب: وابن هلال" و" ياقوت المستعصمي" قبلة الخطاطين.

وليس هناك أمة من الأمم قد تداولت الكتابة بهذه العناية، لتجعل منها فناً دقيقاً، مفصل القواعد، ثابت الأركان والأسس، مقرر الضوابط. مثل أمة العرب.. وقد قامت في لبنان في أوائل السبعينيات حركة تهدف إلى وأد اللغة العربية الفصحى، وإحلال اللهجة العامية محلها.. كما كانت تهدف إلى إلغاء الحرف العربي كتابة وطباعة، والاستعاضة عنه بالحروف اللاتينية، إلا أن هذه الحركة ما لبثت أن خفت حدتها وطغت عليها الأحداث، فانطوت صفحتها، كما سبق أن أثار هذا الموضوع أحمد لطفي السيد" أستاذ الجيل " في مصر عام 1944م! وتمت مناقشته في مجمع فؤاد الأول اللغة العربية وانتهى الأمر بفشله وعدم الأخذ به، وظل حرفنا العربي الجميل على قيد الحياة سليماً معافى.. تخطه الأيدي، وتضربه الآلات الكاتبة والكمبيوتر، وتنشره المطابع صحفاً ومجلات وكتباً ولوحات بالغة الروعة.

تاريخ الفن

وفي كتابة " نشأة الخط العربي " يذكر محمود شكر الجبوري: لقد وصفت الصور الآدمية بأنها لغة الفنون الأوروبية.. ونحن لا نستطيع أن نفهم لغة الفن الإسلامي، ولا يمكن أن نتذوق جمالها الفني إلا إذا أدركنا الفكرة الكامنة وراءها، الفكرة التي آمن بها الفنان المسلم إيماناً عميقاً، فأوحت إليه بهذه الأنواع الزخرفية البديعة.. إذ لماذا يصور الوحدات الزخرفية كما هي في الطبيعة ما دامت هذه الصور ستزول يوماً ما؟.. لماذا لا يعبث بها، ويعطيها- خلال عبثه بها- صوراً جديدة، ويكون من أجزائها رسماً يخضعه لأصول الجمال الفني؟ .. أسئلة شتى دارت في رأس الفنان المسلم ليخرج منها باتجاه جديد تماماً هو ذلك الذي نشهده في الأرابسك، وأولئك الذين ظنوا أن هذا التنسيق، والتحوير، والبعد عن الطبيعة في رسم العناصر الزخرفية في الأرابسك، إنما هيا ناتجة عن ضعف في قوة الملاحظة عند الفنان المسلم، أو عن عجز في قدرته على الرسم الصحيح.. مخطئون جداً في ظنهم ذلك.. إنهم في الحقيقة لم يفهموا فلسفة الفن الإسلامي واتجاهات الفنان فيه.. إن رسالته هي إن يخفف عنا بعضاً من متاعب الحياة، فيكون لنا مهرباً نلجأ كلما أثقلت كواهلنا أعباء السعي وراء لقمة العيش، فينقلنا بألوانه، وأشكاله، وزخارفه، وأنغامه إلى عالم السحر والجمال، إلى عالم ننسى فيه همومنا، ونستمتع في ظله بالهدوء، وبالنشوة، وبالغبطة، والانشراح".

تسبيحةُ الحُبِّ

زاهر حبيب

سُبحانَ مَنْ بِسَمايَ جَلّاها
و كَ بسمةٍ للقلبِ أوحاها
سُبحانَ مَنْ في غارِ أوردَتي
ألقى بها وهَوايَ أقْراها
هي مَنْ أتَتْ نَبضي ضُحىً فَغَدا
بِحَشايَ مجراها ومرساها
غَجَريَّةُ النهدينِ،إنْ هَمَسَتْ
صَدَحَ الغرامُ بها وغَنّاها
كم خُضْتُ في تأويلِ فِتنتِها!
ذا سِحْرُها! .. بَلْ ذاكَ أحلاها!
وبكلِّ وادٍ هِمْتُ مُمْتطيًا
نَبْضَ اللحوفِ أرومُ مَعناها
فبوصفِها لِلحُسْنِ هَندسَةٌ
أضلاعُهُ احتضنتْ زَواياها
لِلحُبِّ خَفْقٌ في تَنَهُّدِها
للوَردِ طَيفٌ في مُحَيّاها
صُلِبَ الفُتونُ على تَرائبها
سَكِرَ الدَّلالُ بنَقْشِ حِنّاها
مَرَجَ الهوى بَحري وقافيتي
بنسيمِها وبفَيضِ أضْواها
ما العشقُ إلا مِنْ مَعاركِها
ما القلبُ إلا مِنْ ضَحاياها
ما الحبرُ؟ ما الأوراقُ؟ ما لُغتي؟
إنْ لمْ يكنْ في(ريْمَ)مَبْناها
هي في دَمي_ريمٌ_أُفَجِّرُها
حُبًا وأبقى مِنْ شَظاياها
صُبحي إذا غابتْ تَنَفَّسَها
ومَسايَ عَسْعَسَ في مَراياها
إني أُكَفْكِفُني لها شَغَفًا
مُنذُ العِناقِ بنكهةِ الـ"هاها"

الجغرافيات السياسية للبترول

أصدر مشروع "كلمة" للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة كتاباً جديداً بعنوان "الجغرافيات السياسية للبترول" للمؤلف فيليب سيبيل-لوبيز ونقله إلى العربية الدكتورة نجاة الصليبي الطويل.

يقدم المؤلف، وهو خبير رفيع المستوى بهذه القضايا، جولة حول العالم مستعرضاً أهم مناطق الإنتاج النفطية، حيث تجري عمليات كبرى تتخذ اليوم أكثر من أي وقت مضى أهمية استراتيجية كبيرة.

يلجأ المؤلف إلى بعض الأمثلة الماضية والحاضرة، ليظهر الرابط الوثيق الذي طالما وُجد بين البترول والجغرافيا السياسية ليبرز أهم العوامل الفاعلة في هذه العلاقة. كما يتطرق إلى أهم الأزمات التي هزّت أسواق البترول واثّرت عليها منذ سنة 2004، حيث شهدت أسعار البترول الخام تزايدا بوتيرة سريعة، وإن كان هذا الارتفاع غير المتوقع يشير إلى بعض مظاهر الضعف البنيوي في الأسواق العالمية في مواجهة ازدياد الطلب، إلا أنه يخفي تحديات سياسية واستراتيجية هائلة، مثل ضمان حماية امدادات النفط ومنتجاته من المواد المكررة لكبار المستهلكين، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة والصين. و هذه الضرورة الملحة تؤثر بشكل كبير على العلاقات بين مختلف الفاعلين، من فنزويلا إلى روسيا، من بحر قزوين إلى الخليج العربي، من البحر المتوسط إلى خليج غينيا.

يعتمد المؤلّف في مقاربته، منهجية متعددة الأوجه والمصادر تنهل من علوم عدة، فتستعين بالجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع، وبصورة أعمّ بالعلوم الانسانية التي تمكّن من استكمال إطار العلوم السياسية والاقتصادية. فهو يدرس التوزيع الجيوسياسي لآبار البترول فيتوقف عند فعاليتها وديمومتها وقدرة انتاجيتها فيحدد أماكنها والدول والأنظمة المرتبطة بها. كما يدرس جميع مراحل الإنتاج من التنقيب إلى التكرير إلى الشحن وإمدادات التوزيع إلى الصناعات النفطية. كما يدرس مسألة الغاز التي هي جزءٍ من مسألة البترول وامتداد لها.

مؤلف الكتاب فيليب سيبيل-لوبيز باحث متخصص في الجغرافيا السياسية (المعهد الفرنسي للجغرافيا السياسية)، وخبير في العلاقات الدولية ومخاطر الدول، ومؤسس المركز الاستشاري للجغرافيا السياسية والعلاقات الدولية، جيوبوليا.

المترجمة د. نجاة الصليبي الطويل، أستاذة جامعية، حائزة على دكتوراه من جامعة السوربون – فرنسا- شاركت في مؤتمرات دولية ومحلية عدة. نشرت الكثير من الأبحاث والمقالات العلمية، وأصدرت عدة دواوين شعرية وقصصاً للأطفال باللغة العربية، وهي ناشطة في المجال الثقافي.

الإحساس بالسعادة

السعادة هدف يسعى إليه البشر. لكن ماذا تعني السعادة.. وبم تتعلّق؟ هل هي مطبوعة في مورثاتنا ــ جيناتنا؟ وهل هي حالة مستدامة أم متتالية متقطّعة من اللحظات السعيدة العابرة؟ وهل هي تعبير عن حالة ذاتية أم تتأتّى من ظروف «موضوعية» خارجية؟

مثل هذه الأسئلة والعديد غيرها، تجد إجاباتها عند الفيلسوف وعالم الاجتماع والكاتب الفرنسي فريدريك لونوا، في كتابه الأخير الذي يحمل عنوان: «حول السعادة.. رحلة فلسفية».

تتوزع مواد الكتاب بين 21 فصلاً «قصيرة»، تدل عناوينها على محتوى العمل نفسه. وتبدأ بفصل «علينا أن نحب الحياة التي نعيشها».. وتنتهي بآخر عن «فرح الفيلسوف سبينوزا». وهناك فصول أخرى تحمل عناوين: في حديقة المتع، إعطاء معنى للحياة، السعادة ليست من هذا العالم، هل يصنع المال السعادة؟ هل يمكن أن نكون سعداء دون الآخرين؟

يشير المؤلف إلى أن هناك رأياً شائعاً أكّده العديد من الباحثين، مفاده أن قابلية الإحساس بالسعادة أو بالتعاسة إنما هي فطرية لدى البشر، بنسبة 50 بالمائة، إذ إنها ـ القابلية ـ تمثل حصيلة الجينات الموروثة والحساسية والمزاج. وأن 10 في المائة تعود للظروف الخارجية وللبلدان التي يعيش فيها المعنيون والحالة المادية للأسرة. أمّا نسبة الـ40 بالمائة المتبقية فتعود للخيارات الشخصية للمعنيين. وبالاعتماد على هذه المعطيات كلّها، يمكن الوصول إلى فهم أفضل للذات الإنسانية كسبيل نحو تحقيق قدر أكبر من السعادة، كما يشرح المؤلف.

يحدد فريدريك لونوار ثلاثة معايير، أو ثلاثة معطيات أساسية لا بدّ من توافرها للإحساس بقدر من السعادة. أوّلاً هناك نوعية العلاقات الوجدانية والعاطفية التي يعيشها المعني في الوسط المحيط فيه، ابتداء من الأسرة الصغيرة ووصولاً إلى المجتمع الكبير. وثانياً: التفتح والازدهار في النشاط الحياتي والمهني الذي يرغبه المعني. وثالثاً، والأكثر أهمية: امتلاك صحّة جيّدة.

وفي جميع الحالات، يرى المؤلف أن السعادة ترتبط بدرجة الوعي الذي يملكه الإنسان. فإذا كان هذا الوعي محدوداً يميل المرء إلى إيجاد سعادته في الأشياء الأكثر بساطة والأكثر يومية والأكثر مادية والأكثر مباشرة. بالمقابل تتطلب درجة أعلى من الوعي، للاهتمام بما يتجاوز ما هو مباشر وما هو مادي عابر، مثل الاهتمام بمسائل تتعلّق بالعدالة والقيم الروحانية والمبادئ الإنسانية.

ينقل المؤلف عن الفيلسوف الشهير سبينوزا، ما مفاده أن الإنسان الحكيم الذي يعمل على تعميق معارفه وتوسيع مداركه، يبلغ درجة من الحريّة تضعه في حالة من الغبطة مختلفة، وأكثر شمولاً واستمراراً من الفرح العابر. ويشرح المؤلف على مدى الفصل الأخير من الكتاب، فلسفة سبينوزا حول السعادة.

إن المؤلف يردد بأشكال مختلفة مقولات كان يرددها الفيلسوف اليوناني القديم سقراط، وغيره من أهل المعرفة، مفادها أن «الجهل مصدر كل الشرور». المهمّة الأكثر نبلاً يحددها بمحاولة الدفع بكل السبل الممكنة نحو «معرفة الذات ومعرفة الآخرين ومعرفة العالم ومحاولة الانفتاح على أبعاد روحانية لا حدود لها». هذا هو «الثمن» لبلوغ السلام الداخلي والسعادة العميقة.

ومن القواعد التي يؤكّدها فريدريك لونوار في «رحلته الفلسفية» نحو السعادة، ضرورة أن يدرك الإنسان أنه من أجل بلوغ الإحساس العميق بالسعادة، عليه أن يجعل من حياته «رائعة في فن العيش». ويؤكد أن امتلاكنا لقدر أكبر فأكبر من الأشياء المادية لن يجعلنا أكثر سعادة. ومما يقوله: «إن المؤشرات الداخلية، النفسية، للثراء هي أكثر قيمة من المؤشرات الخارجية، المادية».

ويشير المؤلف، إلى أن ما يعرفه الجميع، هو أن السعادة بالمعنى الشائع، لا يمكن أن تكون شاملة كاملة ودائمة، ومن هنا يميل البشر إلى جعل إيقاع لحظات سعادتهم، أكثر تردداً. وفي ما هو أبعد من جميع الخلافات، يتفق الجميع على أهمية «السيطرة على أهواء الذات وبلوغ الحريّة الداخلية. وقبل كل شيء، الابتعاد عن العنف حيال الذات وحيال الآخرين. وهذا ما كان يعبّر عنه فلاسفة اليونان القدامى بالبحث عن الحياة الكريمة، عن السعادة».

المؤلف في سطور

فريدريك لونوار. فيلسوف وعالم اجتماع وكاتب فرنسي. نال شهادة الدكتوراه من مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية. يترأس تحرير ملحق جريدة «لوموند» الفرنسية، الخاص بالأديان والمعتقدات. ساهم في الإشراف على إعداد ثلاث موسوعات فلسفية. قدّم ما يزيد على 40 كتاباً، من بينها: شفاء العالم، التيبت: لحظة الحقيقة، زمن المسؤولية، البوذية في فرنسا. الكتاب: حول السعادة.. رحلة فلسفية - تأليف: فريدريك لونوار - الناشر: فايار - باريس- 2013 - الصفحات: 240 صفحة - القطع: المتوسط